

د. صاحب ذهب .. كما عرفناه من صالونه الأدبي إلى أعماق ذاكرته

• إباء اسماعيل

جديدة في الأمانة العامة لجامعة الدول العربية ، ويتقدم للمسابقة ويختار أحد المواضيع المطروحة وهو مشروع الوحدة الاقتصادية. وينجح بالمسابقة وترتيبه الأول من بين المتسابقين ليُعتبر: ” في الأول من كانون الثاني (يناير) عام ١٩٥٧ أول عراقي يدخل الأمانة العامة للجامعة العربية من بابها الرئيس، دون توسط من وزير أو سفير كما فعلها غيري ممن سبقوني منذ تأسيس الجامعة، حيث الأساس في التعيين والوساطات الشخصية من مختلف البلاد العربية، بصرف النظر عن الكفاءة والتحصيل العلمي، وقد عرفت فيما بعد أن بعض من عُينوا من العراقيين الأوائل وغيرهم لم يكن يحمل شهادة جامعية، وكان الفضل حقاً لعبد الخالق حسونة حين بادر - لأول مرة - بجعل التعيين عن طريق الامتحان لأغلب وظائف الأمانة العامة.“

ويعيّن في بادئ الأمر ملحقاً في دائرة البترول التابعة للإدارة الاقتصادية، فمن خلال عمله في الجامعة العربية ، والمؤتمرات التي تُعقد في دول العالم ، التقى بشخصيات كثيرة مرموقة مثل الرئيس اللبناني شارل الحلو عام ١٩٦٦ . ويكوّن علاقات متميزة مع الشيببي ويتحدث عنه وعن مكانته العلمية والأدبية . ويلقي دعوة شيخ الأزهر حينذاك الشيخ محمود شلتوت مرافقاً الشيببي في زيارته وكان موضوع الدعوة تأليف مجلس إسلامي مؤلف من علماء مختلف الدول الإسلامية . ويلتقي بالشاعر المصري عزيز أباظة في منزل د. عبد الحميد بدوي - الذي كان عضواً في محكمة العدل الدولية - . وتستمر لقاءاته وزياراته مع الشيببي ويرصد تاريخ السياسة في مصر كما شهداها آنذاك . ويلتقي بالزعيم الراحل جمال عبد الناصر بعدة مناسبات..

وحضر أم كلثوم في عدد من حفلاتها ورصد شخصيتها وأجواء تلك الأمسيات اللامسية . وتُعرف عن قرب أثناء أحد حفلاتها في أواخر الخمسينات على الشاعر أحمد رامي بمسرح الأزبكية . ويرحل العلامة الشيببي الشخصية الأدبية والسياسية . ويلقي عضو المجمع اللغوي أحمد حسن الزيات محاضرة قيّمة عنه مازال يحتفظ بها د. صاحب ذهب في مكتبته الصوتية . ويحصل أخيراً على درجة الدكتوراه في الاقتصاد عام ١٩٥٦ . كما يشهد عميد الأدب العربي طه حسين أربع مرات أثناء وجوده في القاهرة .

شخصيات تاريخية مرموقة عاشرها وتواصل معها وتأثر بها وكتب عنها في مذكراته، بحكم دراسته وعمله وإقامته لسنوات طويلة في القاهرة وأسفاره وعمله في السلك الدبلوماسي. التقى أكثر من مرة بالجواهري وطه حسين وأم كلثوم وجمال عبد الناصر والرئيس اللبناني شارل الحلو وأحمد أمين والشاعر عزيز أباظة والشيخ محمد رضا الشيببي وغيرهم . هذا الانعكاس الفكري والثقافي يوازي وعيه للزمن الذي عاشه، فرصه بأمانة وموضوعية وحساسية مرفهة سياسياً واقتصادياً واجتماعياً حتى كادت هذه المذكرات تكون وثيقة للقارئ العربي في الحاضر والمستقبل. سيما وأنه وثّق الكثير من الأحداث التي عاشها من تاريخ العراق ومصر على وجه التحديد. يقع الكتاب في (٦١٠) صفحة عدا الوثائق التاريخية والصور.

والتفتت الأخيرة مع د. صاحب ذهب تتعلق بالمستقبل. سألناه عن مشروعه القادم فاجاب: ” لدي مشروعان: الأول كتاب حول الأزمة الاقتصادية العالمية ، الموضوع الذي كتبت عنه بشكل مختصر في المذكرات. ومشروع كتابي الثاني يتعلق باقتصاديات الطاقة، تأثيرها ومستقبل الطاقة في الوطن العربي. ومن العلم إلى الأدب ، سألناه عن طموحاته فيما يتعلق بالصالون الأدبي في ميشغن فقال: ” أفكر في تخصيص جائزة سنوية لأفضل إبداعات أدباء المهجر الأمريكي وتبني طباعة الكتب الفائزة“. ومن المعروف أن صالون د. صاحب ذهب الأدبي بدأ منذ عام ١٩٩٨ في كاليفورنيا ثم انتقل معه إلى ولاية ميشغن قبل حوالي ثماني سنوات. سألناه أي منهما حقّق نجاحاً أكبر برأيك فاجاب: ” الجالية العربية في ميشغن حققت شوطاً كبيراً من حيث النشاطات الأدبية والفعاليات الثقافية وهذا انعكس على نشاط الصالون الأدبي وأعضائه، بينما تميّز الصالون في كاليفورنيا بالحوارات الشعرية بين الشعراء وهذه لم تكن موجودة حتى في الرابطة القلمية.“



في مطلع حياتي لتجيب محفوظ وطه حسين والحكيم والعقاد وغيرهم. لم أنس روح كتابات هؤلاء التي تغلغت في فكر ووجدان جيلنا . عدت الآن مع هديل ذكريات د. صاحب ذهب إلى نفس الحالة من الأسلوب الأدبي الكلاسيكي الملمع بالفكاهة حيناً ، والحنكة اللغوية والأدبية حيناً آخر، والألم حيناً آخر. وواقعية الأحداث وغناها وثرها تجربته منذ نشأته في النجف الأشرف ومماناته لتحقيق حلمه في الدراسة رغم صعوبة الظروف التي كان يعيشها ولكنه حققها بإصرارٍ وعزيمة وصبر وإرادة، فصار مثلاً يُحتذى لكل الأجيال القادمة.

ومن معاناة طفولته يقول: وأذكر أنه خلال الصيف - في أوائل الاربعينيات- هبط وباء الملاريا على مدينة النجف، كنت أحد ضحايا هذه الحمى، وأنا ابن الحادية عشرة، فقد قاسيت شدتها، واستشعرت مرارة شراب الكبتين، وحين تعود بي الذكرى إليها أتذكر وصف المتنبّي للمحى التي انتابته، وكأنه قد وصف الملاريا ذاتها وهي التي تزوره في الظلام

ويتحدث لنا عن دراسته في النجف الأشرف بكل واقعية وبساطة قائلاً: ”لم يكن في طفولتي ما يميزها عن بقية الأطفال، وأذكر حين دخلت المدرسة الابتدائية تردد مدير المدرسة في قبولي بسبب صغر سني مقارنة ببقية الأطفال، كنت آنذاك أقل حيوية وأكثر خمولاً من بقية التلاميذ، ولم أنجح في السنة الأولى، وقررت المدرسة أن أعيد السنة، ولم أكمل الدراسة الابتدائية إلا في ثماني سنوات بدلا من ست، ثم بعد ذلك بدأت حياتي تتغير، فقد استهواني الشعر والأدب، متأثراً بما كنت أسمع من أسرتي وبينتي، حيث لفة الشعر والشعراء تكاد تطفئ على كل لسان، وحيث المجالس الأدبية والندوات الشعرية تدخل أغلب البيوتات، وحيث الاستشهادات والحكم الشعرية ينطق بها الأدب المنقذ ورجل الأعمال على السواء.“

أما أهم أساتذة د. صاحب ذهب على الإطلاق والذي ترك أثره البالغ في تجربته الشعرية والأدبية حتى اللحظة فكان أساتذته الشاعر الراحل صالح الجعفري، ويدخل صاحب ذهب - التلميذ- جمعية الرابطة الأدبية التي تأسست في النجف عام ١٩٣٢ ويحصل في سنته الثانوية الأخيرة على الجائزة الأولى في الشعر ضمن مسابقة أدبية اشترك فيها طلاب محافظة كربلاء التي كانت تتبعها مدينة النجف آنذاك. وقد أبدى أستاذ الجعفري أيضاً ملاحظاته عليها لصلق موهبته وكان موضوعه (الجامعة العربية) ..

ثم يدرس الحقوق في دار المعلمين العالية في بغداد ويتحدث عن معاناته وغربته وشظف العيش مما دفعه إلى التفكير بالعمل أثناء دراسته. وتستمر غربته الاختيارية فيتوجه إلى القاهرة ويصادف في القاهرة شخصيات مهمة عاصرت في تلك الفترة وأثناء دراسته. كان د. ذهب شاهداً على عصره ، وساعدته ظروف الغربية والتنقل وطبيعة عمله برصد العالم من حوله بدقة لامتناهية. ويقرأ إعلاناً في إحدى الصحف المصرية يغير مجرى حياته وهو بصدد إعداد رسالة الدكتوراه . الإعلان يفيد بوجود وظائف دبلوماسية

صالون د. صاحب ذهب الأدبي في ولاية ميشغن الأمريكية، كان البوابة التي دخلنا منها إلى عالم د. صاحب ذهب، لتكتشف كنوزه، هذا الصالون وأمثاله، يساهم في بناء ركن أساسي من الثقافة الانسانية على رأي ول ديورانت المؤرخ الأمريكي مؤلف قصة الحضارة - «إن الحضارة نظام اجتماعي يعين الانسان على الزيادة من إنتاجه الثقافي.. أقولها باعتراف الجميع، قال د. جميل بيضون أحد رؤاد الصالون الأدبي: « نحن نتعلم من خلال صالون الدكتور صاحب، ثقافة جديدة، بما نستمتع إليه من إبداع شعري، أو أبحاث ثقافية... (ص.٥٥٢) .

هذه الكنوز بدأت تتبلور وتتفاعل مع الكتاب والمبدعين من شعراء وأدباء وأساتذة جامعيين. يكشف أساتذ اللغة العربية تحسين بزي أحد رؤاد الصالون، تجربة د. صاحب ذهب الشعرية ويناقش بعض قصائده التي جاءت كحوار شعري في صالونه الأدبي في كاليفورنيا من حيث تم تأسيسه عام ١٩٩٨، يؤكد شعريته وتفاعله مع الشعراء الآخرين، كقصيدة « تاناًة بتاناًة، التي ولدت بُعيد استلام قصيدة الشاعر الزجال الفلسطيني سعود الأسدي. كما تناول قصيدة ثانية بعنوان « النحية، يرد فيها على الشاعرة الكبيرة ليمة عباس عمارة . وثالثة بعنوان « للحبيب الذي في رداي، كتعقيب على ديوان الشاعرة الفلسطينية سلوى السيد. وكانتا من رؤاد الصالون الأدبي في كاليفورنيا. ووصفه الأستاذ تحسين بأنه «الشاعر الذي أضع طريقه، وهو الآن، ومنذ مايقارب العشرين سنة، يُكفّر عن خطيئة هجره الشعر وشطائه وشيطنته، (ص.٥٧٨) . وحين سألنا د. صاحب ذهب عما إذا كان يفكر بيشر ديوان شعر يجمع قصائده الكثيرة المتفرقة، نض ذلك بالرد أنه لايجد نفسه شاعراً!!

وها نحن أمام كتابه «من أعماق الذاكرة، بطبعته الثانية الصادرة في بيروت عن دار منتدى المعارف. وكان لي شرف مراجعته في طبعته الأولى والثانية في مراحلها النهائية. وأدركت أصالة هذا الانسان وتميّزه في الدقة اللامتناهية التي يتعامل فيها مع اللغة العربية ومن حيث دقة التوثيق باستخدام المعاجم والمرجع اللازمة إلى أي معلومة التي يريدّها. د. صاحب ذهب هو من الشخصيات النادرة التي عرفتها ، لجمعه بين العلم والأدب، علم الاقتصاد وهو مجال تخصصه في الدكتوراه من جامعة القاهرة بمرتبة الشرف الأولى عام ١٩٦٩. وهو أيضاً الحاصل على إجازة الحقوق من جامعة بغداد عام ١٩٥١، حيث نُشر عدة مؤلفات في مجال الاقتصاد ذكر منها « البترول العربي الخام في السوق العالمية، و، اتفاقيات عقود البترول في البلاد العربية. وفي مجال إصداراته الأدبية، نُشر تحقيق وتقديم فصول في أصول الفقه، لجده العلامة الشيخ محمود ذهب، وتحقيق « رباعيات الخيام» لأستاذه الشاعر صالح الجعفري» وهذا التنوع، يعكس مسيرة حياته التي رصدها في كتابه الأخير « من أعماق الذاكرة،» فهديل ذكرياته وضعتني أمام عالم شري من البشر والحجر والعلم والأدب والسياسة والاقتصاد والتاريخ والدبلوماسية والصدق والصداقة والغربة والمعاناة. مقالات وشهادات كثيرة كتبت عن هذا الكتاب ونشرت معظمها في الطبعة الثانية منه. د. صاحب ذهب كان حريصاً على توثيق كل المعلومات بشكل علمي ودقيق في الكتاب ماتباعاً بالشان الاقتصادي والسياسي والاجتماعي، وكان يفتننا من أشد الأحداث خصوصية والتصاق بحياته إلى أكثرها شمولية ووطنية . همهُ أن يكون شاهداً أميناً على عصره. وهذا هو جوهر ذاكرته التي رصدها في كتابه. أما كيف نشأت فكرة كتابته للمذكرات، فيخبرنا أنه بدأ بكتابتها قبل خمس سنوات وكانت تأتيه على شكل خواطر من الماضي العاشق واللاحق. وتكوّنت كمية كبيرة منها وبدأ بتجميع الوثائق والصور والملحق. والتقى بصديق عمره الشاعر القدير د. عبد الحسّن زلزلة وأطلعه عليها حتى قبل تحويلها إلى كتاب مذكرات وقد تحمّس د. زلزلة وشجّعهُ على نشرها ككتاب مذكرات وأطلق شهادته الهامة والمؤثرة على نفسية صديقه د. ذهب، ...قرأت معظم مسودات فصوله، وكان لي الحظ أن أسهم بإعداد مقدمته، وأصدقكم القول بأنّي أكاد أقرأ فيه مسيرة حياتي الشخصية، بمفاصلها، ومراحلها، ومنجزاتها وإحباطاتها. لقد هللنا سويًا من نفس المنبع، وعشنا في نفس المحيط، وكانت تجربتنا الحياتية متماثلة، في

الحل والترحال، في الطموح والعدايب، (ص.٥٨٦) ليرى الكتاب النور بطبعته الأولى الصادرة عن دار الانتشار العربي في بيروت عام ٢٠١٢. أول ما يلتفت للقارئ فيها هو تجلّي شخصية صاحب ذهب الأدبية المتميزة. انطباعي الأول أنه أعادني بأسلوبه الأدبي الشيق على ما فيه من سرد قصصي ووصف دقيق رغم توثيق الحقائق بأسماء الأشخاص والتواريخ، أعادني إلى أعماق الأدب العربي بمصر تحديداً ليُعكس مدى تأثره بالأجواء الأدبية في مصر أثناء دراسته للدكتوراه في الاقتصاد وأثناء عمله في الجامعة العربية. . تأكد لي هذا على كثرة ما كنت أقرأ